# الباب الرابع

## في موقف الناس من الحق

الفصل الأول :

* فى العلم بالحق والإيمان به والثبات عليه وتبليغه.

الفصل الثانى :

* فى العلم بالحق وكتمانه والكفر به وتكذيبه.

الفصل الثالث :

* فى المؤثرات التى تميل بالناس عن الحق.

obeikandl.com

إن موقف الناس من الحق متباين مختلف فمنهم كافر ومنهم مؤمن ولكل فريق سماته وصفاته : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ ولا يستويان .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

(غافر: ٥٨)

والحق هو سبيل الله الذى يجاهد فيه الذين آمنوا ويصد عنه الذين كفروا وبه تتميز صفوف الناس وتعرف مواقفهم ويكون حسابهم وجزاؤهم .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾

(محمد: ١ - ٣)

والحق لا يحدده الناس ولا يتبع أهواءهم . ولا يتأتى أن يكون منهم بل هو من الله وحده لا شريك له . لأنه وحده هو الغنى والناس جميعا فقراء إليه . والله وحده هو الخالق والناس لا يَخْلقُون شيئا بل يُخْلَقُون . والله وحده هو الحى الذى لا يموت والإنس والجن يموتون . وهو وحده المالك والناس بما فى أيديهم هو الذى جعلهم مستخلفين . وهو يطعم ولا يطعم . وهو الذى يجير ولا يجار عليه . وهو على كل شىء قدير . وهو بكل شىء عليم . وهو الحق وما يدعون من دونه الباطل .

ولا يحدد معالم الحق ويحفظه ويبقيه ويجازى عليه إلا من كانت هذه صفاته فإن الحق

ليس طارئا على حياة الناس أو دخيلا عليهم وليس لجيل دون جيل. بل هو أصل فى فطرتهم ومقومات حياتهم وبه يكون خلقهم ويكون موتهم وبعثهم وعليه يقوم حسابهم وجزاؤهم.

فمن ذا الذى يستطيع أن يحفظ أمر الحق فى الزمن كله وفى المراحل كلها ويجمع الأولين والآخرين ليوم الحق إلا من كانت هذه آيته وتلك عظمته وهذه صفاته:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(البقرة: ٢٥٥)

فهو سبحانه حين ينبىء الخلق بما عملوا يقص عليهم بعلم وحين يجازيهم بما كسبوا يحكم بالعدل ويقضى بالحق. وحين يأخذ الظالم المتجبر يأخذه أخذ عزيز مقتدر وحين يجازى الذين أحسنوا يملك الجزاء ويضاعف لمن يشاء.

ومن غفلوا عن هذه الحقائق أو شغلوا عنها بشاغل اقتادهم الباطل وجوزوا بالحق. ومن أبصروا وأيقنوا بها اتبعوا الحق من ربهم وكانت لهم البشرى بأن لهم عنده قدم صدق.

والآيات تبين لنا الحق ومواقف الناس منه وأثر هذه المواقف فى دنيا الناس وآخرتهم. كما تبين لنا ما يشغل الناس ويصرفهم عن الحق ويغريهم بعداوته والصد عنه **﴿ليهلك من هلك عن بينةٍ ويحيى من حى عن بينةٍ﴾**. فمع الآيات.

# الفصل الأول

## ★ في العلم بالحق والإيمان به والثبات عليه وتبليغه.

### الآيـــــات

١ - ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(المائدة: ٨٣، ٨٤)

٢ - ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الاعراف: ٤٣)

٣ - ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

(الاعراف: ١٥٩)

٤ - ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

(الاعراف: ١٨١)



obeikandl.com

٥ - ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(الرعد: ١٩)

٦ - ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(الحج: ٥٤)

٧ - ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾

(النمل: ٧٩)

٨ - ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾

(القصص: ٥٣)

٩ - ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

(سبأ: ٦)

١٠ - ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

(الشورى: ١٨)



obeikandl.com

١١ - ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(الاحقاف: ٣٠)

١٢ - ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾

(محمد: ٢، ٣)

١٣ - ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . . .﴾ الآية .

ومورد الآية فيمن آمن ـ من أهل الكتاب من الذين قالوا إنا نصارى ـ بالحق الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقد عرفوا أنه الحق الذى أنزل على موسى وعيسى من قبل كما قال النجاشى حين سمع ما سمع من آيات الله التى تلاها عليه جعفر بن أبى طالب ـ قال: ما زاد هذا على ما فى الإنجيل ولا هذا العود. وكان قد أخذ عودا من الأرض بعد أن فرغ جعفر من تلاوته ورفعه وقال قولته.

كما قال الله عز وجل:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ

إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

(آل عمران: ١٩٩)

وقال:

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾

(القصص: ٥٣)

إن ايمانهم بالحق يرفعهم عن قيود الزمان والمكان فلا يرون الحق فى رسالة نبى دون نبى أو يؤمنون برسول دون رسول وإنما يعرفون أن الحق واحد. والرسل جميعا دعاة اليه. فلا يفرقون بين أحد من رسله ولا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض بل يؤمنون بالكتاب كله وذلك يجعلهم إخوانا للمؤمنين سابقين ولاحقين.

وترى دعاءهم يتسق مع معرفتهم﴿**ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾. وطمعهم أن يدخلهم ربهم مع الصالحين من اتباع جميع الأنبياء والمرسلين وتراهم ـ وقد أثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار ـ يدخلهم فى جزاء المحسنين من الأولين والاخرين.

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(المائدة: ٨٥)

وهكذا يرتفع الايمان بصاحبه ويلحقه بالصالحين فى أى زمان وأى مكان ويخرجه من دائرة الخلود إلى الأرض أو الخضوع لهوى التقليد لمنكرٍ أو مُضِل.

وترى تأثير الحق فى نفوس عرفته فآمنت به، عرفته من عند ربها فوجلت القلوب

وفاضت الاعين ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾. وترى تأثيره فى سلوكهم وأعمالهم فلا ينسبون لأنفسهم فضلا وانما يحمدون الله الذى هداهم ووفقهم لمعرفة الحق وقبوله. فهم يعملون به ويرجون من الله أن يريهم الحق فى جميع أمرهم وأن يرزقهم اتباعه. وأن يريهم الباطل باطلا ويرزقهم اجتنابه. فلا ادعاء عندهم ولا تكلف. وانما هى الرغبة فى الحق تدعوهم إلى طلبه وصحبة أهله والرضا بحكمه. فلا يرون الحق فى أنفسهم وينكرونه عند غيرهم وإنما يرون الحق حقا ولو كان عند عدوّهم والباطل باطلا ولو كان عند أنفسهم. ميزانهم فى ذلك هو ميزان الله الذى يذعنون له ولا يجدون فى أنفسهم حرجا من قبوله. وهذا التجرد للحق هو سمة المؤمن الصادق حيث كان فلا غل فى صدره لصاحب فضل ولا حسد لمن آتاهم الله من فضله بل شكر وذكر وصدق وَلَاءٍ وحب ورغبة فيما عند الله تحقق لهم ما يرجون من فضل وأجر. وهذا جزاء اولئك الذين آمنوا بالحق وأخلصوا له وعملوا به.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الاعراف: ٤٣)

إن الله يذكر لهم عملهم وهم يذكرون فضله وهدايته. ويقصرون ما كانوا عليه في دنياهم وما صاروا إليه في أخراهم على هدايته وتوفيقه ويقولون شاكرين حامدين ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾. وبالحق الذي جاءت به الرسل هدوا إلى سواء السبيل. فبرحمة الله اهتدوا وبفضله عرفوا وبتوفيقه عملوا وقبلوا. والله عز وجل لا يقبل إلا من محق يتبع الحق ويؤمن به. ومن اتبع الحق قاده ـ برحمة الله ـ إلى الجنة. ومن اتبع الباطل ضل سعيه وحبط عمله ﴿ والنار مثوى لهم ﴾.

يقول أهل الإيمان ـ وهم يحمدون الله على هدايته وتوفيقه ـ ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾. لقد عرفوا ذلك وعملوا به في الدنيا. وها هم اليوم يرون صدق

ما عرفوا وما وعدوا به. ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾.
وترى أهل الباطل أيضا يعترفون بأن رسل الله قد جاءوا بالحق وهم يرون صدق ما دعوا إليه وحذروا منه وقد نسوا ذلك من قبل وغفلوا عنه:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

( الأعراف: ٥٣ )

يقولون ذلك بعد فوات الأوان يقولونه في دار الجزاء وقد ضيعوا وكذبوا في دار الامتحان والاختبار إنهم يتحسرون على تفريطهم في العمل بالحق والاستجابة للرسل الذين جاؤا بالحق ويبدون ندمهم في وقت لا ينفعهم فيه ندم ولا تقبل شفاعة أو معذرة. لقد اتبعوا الباطل وهاهم اليوم يجزون بالحق ولا يجدون أمامهم إلا الحق:

﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾

( الشورى: ٤٤ )

يطلبون أن يردوا ليعملوا بالحق الذي أنكروه بعد أن رأوا خسارتهم وهيهات أن يُجابوا:

﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

( الأنعام: ٢٨ )

وقد نُودوا من قبل:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾

( الشورى: ٤٧ )

فلم يستجيبوا ولم يعملوا بل كذبوا وصدوا:

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

( الروم: ٥٧ )

وعندئذ يعرَفُ من فاز ومن خسر، وكفى بالحق نصرا أن تكون تلك عاقبته وكفى بالباطل زهوقا ألا ترى من حزبه إلا ملوماً مدحوراً.

وفي دنيا الناس ترى من يهدون بالحق في كل زمن وإن قَلَّ عددهم ومن يعدلون به لا بغيره وإن كثر من يخالفهم. والجوهر النفيس غريب ولكنه موجود. وأهل الحق قليل ولكنهم لأهل الباطل غائظون. وفرعون في قومه يقول عن اتباع موسى وهم قليل:

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾

( الشعراء: ٥٤، ٥٥ )

وما يقوله فرعون يقع من كل مبطل يُجابه بالحق ويُقَاومُ مِنْ مُحِق.

وفي كل زمن ترى من يدعو إلى الحق ويهدي به. ويجابه بالحق فرعون عصره وقارون زمنه ومع فرعون هامان ومع كل مستبد بطانة سوء تغريه بالفساد. وما كيد هؤلاء وأولئك إلا في تباب والعاقبة هي العاقبة والمصير هو المصير:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

( غافر: ٥١، ٥٢ )

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

( الأعراف: ١٥٩ )

يقول ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: « ومن قوم موسى » « الآية « يهدون »

معناه يرشدون أنفسهم، وهذا الكلام يحتمل أن يريد به المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاه من الزمن فأخبر أنه كان في بني إسرائيل على عُتُوِّهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل. ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم ».

وليس في قوم موسى وحدهم بل في خلق الله. فى كل زمن من يقوم بالحق ويهدى به كما قال عز وجل:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

( الأعراف: ١٨١ )

« هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان وإستقامة وهداية. فظاهر لفظ هذه الآية يقتضى كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

قال القاضي أبو محمد سواء بَعُد صوته أو كان خاملا.

وروى عن كثير من المفسرين أنها في أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وروى في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذه الآية لكم. وقد تقدم مثلها لقوم موسى »[1].

وقال الفخر الرازى في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾. اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾. فأخبر أن كثيراً من الثقلين مخلوقون للنار أتبعه بقوله: ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾. ليبين أن كثيراً منهم مخلوقون للجنة. وأعلم أنه تعالى ذكر في قصة

(١) أخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر ـ عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق﴾ قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها (هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها) ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾. الدر المنثور: (٣ ــ ١٤٩). (المحرر الوجيز لابن عطية) طبعة قطر.

موسى قوله: ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾.

فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام ها هنا حمله أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم محمد صلى الله عليه وسلم. روى قتاده وابن جريج عن النبي صلى الله عليه وسلم إنها هذه الأمة. وروى أيضا أنه عليه الصلاة والسلام قال « هذه فيكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها ». وعن الربيع بن أنس أنه قال قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال: « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم ». وقال ابن عباس يريد أمة محمد عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار. قال الجبائي: هذه الآية تدل على أنه لا يخلو زمان البتة عمن يقوم بالحق ويعمل به ويهدي إليه وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل، لأنه لا يخلو إما أن يكون المراد زمان وجود محمد صلى الله عليه وسلم وهو الزمان الذي نزلت فيه هذه الآية. أو المراد أنه قد حصل زمان من الأزمنة حصل فيه قوم بالصفة المذكورة. أو المراد ما ذكرنا أنه لا يخلو زمان من الأزمنة عن قوم موصوفين بهذه الصفة. والأول باطل لأنه قد كان ظاهراً لكل الناس أن محمداً وأصحابه على الحق، فحمل الآية على هذا المعنى يخرجه عن الفائدة والثاني باطل أيضا، لأن كل أحد يعلم بالضرورة أنه قد حصل زمان من الأزمنة الماضية حصل فيه جمع من المحقين. فلم يبق إلا القسم الثالث وهو أدل على أنه ما خَلاَ زمان عن قوم من المحقين.

والحق أن الآية عامة لا تخص زمنا دون زمن « ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تعالى ». وهي في أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا يكون على الحق إلا من اتبعه وعلم أن ما أنزل عليه هو الحق فأولئك هم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ولا يستوي من يعلم ومن لا يعلم.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

( الرعد: ١٩ )

والهمزة في قوله: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ ﴾ للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم انما أنـزله الله سبحانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهـة وهو القرآن. وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك. فإن الحال بينهما متباعد جداً. كالتباعد بين الماء والزبد. وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام ثم بين سبحانه أنه انما يقف على تفاوت المنزلتين، وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة. فقـال: ﴿ **إنـما يتذكر أولوا الألباب** ﴾. ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة فقال: ﴿ **الذين يوفون بعهد الله** . . . . . ﴾[1].

وهذه الآية جاءت بعد مثل ضربه الله للحق والباطل تعرف به طبيعة الحق وآثاره وأنه كالماء يمكث وينفع وأن الباطل زبد يطفو ثم يتلاشى ويذهب. وأن النفوس التى تتقبل الحق وتستجيب له كالأرض الطيبة التي تتقبل الغيث فتنبت وتثمر. ومن ثمارها صفات بارة وخلق حميد وإيمان يفي بالعهود ويصل ما أمر الله به أن يوصل. وخشية من الله وخـوف من سوء الحساب يحملهم على مرضاة ربهم وتقديم خيرهم وكف شرهم. وصبر أبيّ لا تستدرجه المنافع ولا تميل به المصاعب صبر تعلو به الجباه فلا تذل لمطمع ولا تطغى بمغنم ولا تستخف بزينة حياة أو تؤخذ بمنطق طغاة لأنه صبر في مرضاة الله. هذا ما تثمره النفوس التي استجابت للحق أثمرت عطاء يتراحم به الناس في دنياهم والراحمون يرحمهم الرحمن.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (الرعـد: ١٨)

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ ( الرعد: ٢٢ ـ ٢٤ )

وأمـا أولئـك الذين لم يستجيبوا للحق فقد ساء سعيهم وساءت عاقبتهم. فهم

(١) فتح القدير: للشوكانى.

ينقضون العهد ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. ويأتي الجزاء وفاقا لأعمالهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

( الرعد: ١٨ )

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

( الرعد: ٢٥ )

فلا مساواة بين من يعلم أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق وبين من لا يعلم. لا مساواة في الأعمال ولا يستوون في الآثار والنتائج.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

( الرعد: ١٩ )

« ان المقابل لمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا. إنما المقابل هو الأعمى. وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب وتجسيم الفروق. وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف. فالعمى وحده هو الذي ينشىء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تخفى إلَّا على أعمى. والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان: مبصرون فهو يعلمون، وعمى فهم لا يعلمون. والعمى عمى البصيرة وانطماس المدارك، واستغلاق القلوب، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح. وانفصالها عن

مصدر الإشعاع . إنما يتذكر ﴿ أُولُوا الأَلْبَاب ﴾ الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر، وتنبه إلى دلائله فتتفكر، وهذه صفات أولى الألباب هؤلاء[1] .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾

( الرعد : ٢٠-٢٢ )

أرأيت ثمار من استجاب للحق ومن جحده ومن تقبله ومن رده؟ أرأيت عاقبة هؤلاء وأولئك؟ فاحرص على الحق واستعن بربك فذاك سبيل أولى العلم وهذا ما يحققه الحق في نفوسهم .

﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

( الحج : ٥٤ )

ومورد هذه الآية من سورة الحج قد تحدثنا عنه من قبل . ولكنا هنا نتدبر أثر العلم بالحق وما يؤدى إليه من إيمان وطمأنينة وإستقامة . والمراد بالحق القرآن فهو الحق النازل من عند الله ومن تقبله آمن به ووجد أثره في نفسه إنقياداً وخشية . ووجد الهداية من ربه . في كل شأن من شئونه . ومن يهد الله فلا مضل له . وجدير بمن كان على الحق أن يحسن التوكل على الله . فإن التوكل على الله دلالة صدق على معرفة الحق . وهو عصمة لصاحبه من الركون إلى شىء من الباطل . فإن اتباع الحق مخاصمة لأرباب الهوى والباطل . ولهم وسائلهم في الصد والإغراء والاستخفاف والكيد . ولهم مطامعهم في تطويع أهل الحق

---

(١) فى ظلال القرآن .

وردهم بعد إيمانهم كافرين والتوكل على الله حمى لصاحبه وحصانة له من الوهن والضعف واستخفاف أهل النفاق والكفر. والتوكل على الله الذي يقوم على الإيمان بالحق باعث على الحركة في غير يأس داع إلى الصبر في غير جزع. محقق للثقة في العاقبة دون شك أو ريب. إن من هدى إلى الحق جدير به أن يحسن التوكل على الله الذي هداه:

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

( إبراهيم: ١٢ )

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾

( النمل: ٧٩ )

هذا أمر الله لنبيه تثبيتا له وتعليما لأمته:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

( الأحزاب: ١-٣ )

ان من نتائج العلم بالحق والإيمان به حسن التوكل على الله واليقين بنصرته وحسن عاقبته. ودلائل الحق أبين من أن تخفى على ذى بصيرة. ومن عرف الحق عرف أهله:

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ۖ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص: ٥٣)

ومن ذا الذي لا يفرق بين نور الشمس وظلام الليل إلا من غشى بصره وعميت بصيرته.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

( الروم : ٥٢، ٥٣ )

إن هؤلاء الذين أعلنوا إيمانهم بالحق حين تلى عليهم قد عرفوه من قبل في كتبهم ﴿ **إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ . وهؤلاء يؤتيهم الله أجرهم مرتين . ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾ . على اتباع الحق وهم يواجهون إنحراف قومهم ويتجشمون المشاق للثبات على الحق والقيام بفرائضه . وقد ورد في الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ـ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي فله أجران . وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » وفي مسند الإمام أحمد عن القاسم بن أبي أمامة قال « إنى لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسنا جميلا وقال «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ما علينا . هذا ما يحققه الحق لمن عرفه وثبت عليه فآمن برسله :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

( آل عمران : ١٩٩ )

إن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق . والحق لابد أن يعترف جميع الخلق به إن عاجلا أو آجلا . فمن علم أنه الحق وعمل به في دنياه رآه ثوابا في أخراه .

ومن علم أنه الحق وصد عنه وكذب رسله. رآه عقابا في أخراه ونطق جميع الخلق بأن ما جاءت به الرسل هو الحق. يقول أهل الإيمان: ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾. ويقول: أهل الكفر والإنكار- وقد رأوا تأويل ما أخبروا به ووقع ما أنكروه وكذبوه: ﴿ **قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾. يقولون ذلك وهم في حسرة وندم على تكذيبهم وإنكارهم من قبل.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

( سبأ: ٦ )

ومورد الآية في الحديث عن الساعة وما يقع فيها من ثواب وعقاب:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ۖ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

( سبأ: ٣ )

والساعة حق. وهي من الحق الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبلغه للناس وعلم من علم فصدق وآمن وعمل بما علم. وكذب من كذب ولم يعمل بما علم. وتأتي الساعة ويعلم جميع الخلق أمرها ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق** ﴾ فما المراد بالذين أوتو العلم ؟ .

يقول الزمخشري في تفسيره « ويرى » في موضع رفع أي ويعلم أولوا العلم يعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ أعقابهم من أمته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأخبار وعبدالله بن سلام رضي الله عنهما.

﴿ **الذي أنزل إليك** ﴾. « الْحَقَّ ». وهما مفعولان ليرى و« هو » فصل. ومن قرأ

الحق بالرفع جعله مبتدأ والحقُّ خبراً والجملة في موضع المفعول الثاني .

وقيل « يرى » في موضع النصب معطوف على « ليجزى[1] أي وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علما لا يزاد عليه في الإيقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا . ويجوز أن يريد ويعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما » .

ومع احتمال ما ذكر في المراد بـ « الذين أوتوا العلم » فإننا نرى النتائج في العلم بالحق ـ وهو ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما تضمنه من حديث عن الساعة وما يقع فيها من جزاء ـ فالذين علموا أنه الحق وعملوا به وثبتوا عليه ها هم يجدون جزاءهم ﴿ **أولئك لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ . والذين علموا أنه الحق وسعوا في الصد عنه وتكذيب رسله يجدون جزاءهم وفاقاً لأعمالهم . ﴿ **أولئك لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ . .

ويرى ابن كثير أن المراد « بالذين أوتوا» هم أهل الإيمان . فيقول بعد ذكر الآيات التي وردت فيها وبيانها .

وقوله تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق** ﴾ . وهذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها[1] وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه عين اليقين . ويقولون يومئذ أيضا ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ . وقال أيضا : ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ . ﴿ **لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث** ﴾ . ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ . العزيز هو المنيع الجناب . الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد قهر كل شيء وغلبه . الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا » .

---

(١) «ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياته معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم» . (سبأ : ٤ ، ٥) .

(١) يريد العطف على قوله «ليجزى الذين آمنوا» أى ليجزى وليرى «ويرى» على ذلك . فى موضع النصب . عطفا على «ليجزى» . كما ذكر الزمخشرى من قبل فى أحد وجهى الاعراب لـ «يرى» .

وأهل الإيمان مشفقون من الساعة وهم يعلمون أنها الحق فلا يغفلون بل يسارعون إلى الخيرات وإقام الصلاة وايتاء الزكاة. والذين لا يؤمنون يستخفون بها ويستعجلون أمرها وهم يجادلون ويمارون.

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

( الشورى: ١٨ )

ومورد الآية في الحديث عن إنزال الكتاب بالحق والميزان. وما يقتضيه من قيام الساعة ومجازاة الناس على موقفهم من الحق وقيامهم بالقسط.

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

( الشورى: ١٧ )

﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق** ﴾. يعلمون أنها كائنة لا محالة. وهذا العلم اليقيني يدعوهم إلى الإعداد لها والإشفاق منها. ﴿ **يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾. ﴿ **فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة** ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

( المؤمنون: ٦٠، ٦١ )

إنهم يستعدون لها ويشفقون منها. أما الذين لا يؤمنون فإنهم يستعجلون بها تكذيباً وإستبعاداً وكفراً وعناداً ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾. وإذا قيل لهم ﴿ **إليه تحشرون** ﴾. تراهم يقولون مستخفين مستبعدين

﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾. وهم حين يرون ما يوعدون تراهم على حال تناقض ما كانوا عليه في دنياهم:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾

( الروم: ٥٥ )

ومن قبل كانوا يستعجلون. ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾.

إن الإيمان بالآخرة داع إلى الإستقامة في الدنيا والمسارعة إلى الخيرات. ومن رحمة الله بالخلق أن يجمعهم ليوم لا ريب فيه وأن يبلغهم بذلك في دنياهم لتسلم أعمالهم من البغي والتسلط والمن والأذى.

والمؤمنون بالآخرة لا يوقفهم علمهم بالحق عند العمل به في أنفسهم بل يدعون غيرهم ويحذرون من الغفلة أو الإنكار. وهذا ما يفعله دعاة الحق في أي زمان ومكان. فترى مؤمن آل فرعون ـ وهو يرد طغيان قومه ـ يذكرهم بيوم القيامة ويخوفهم من عذابها ويحذرهم من التمادى في الظلم والفساد لأن من أيقن بها كف عن الناس شره وقدم خيره إنقاذًا لنفسه من الهلاك والخسران.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ

﴿ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ ٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي
إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ٤٤ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ٤٥ النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

( غافر: ٣٨-٤٦ )

هكذا نرى الحديث عن الآخرة أجمل في موعظته لاستقامة سعيهم وكف طغيانهم وشرهم . ومن قبل يقول لهم : ﴿ **ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ . ( غافر: ٣٢ ، ٣٣ ) . والقرآن الكريم يرينا نتائج الأعمال وما انتهى إليه أولئك الذين أصروا على ما فعلوا ولم يستجيبوا لداعي الحق . لقد أبطل الله كيدهم وأخذهم بذنبهم . وحفظ من حفظ الحق ودعا إليه ونصح به وبلغ ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ .

وهكذا يتباين الناس وتتميز مصائرهم . تبعا لموقفهم من الحق . والجن كالإنس منهم المسلمون ومنهم القاسطون .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا
لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾

( الجن: ١٤، ١٥ )

ومع المؤمنين من الجن لنرى ماذا فعلوا حين علموا بالحق وآمنوا به ؟ .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ
فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ
فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

( الأحقاف: ٣٠-٣٢ )

لقد سمعوا ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحق من ربهم فكانوا بما سمعوا معلِّمين راشدين وكان للحق تأثيره في نفوسهم وفي تبليغ ما سمعوا:

١ - أحسنوا الأدب في التلقي وسماع القرآن.
**﴿ فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾.**

٢ - عادوا إلى قومهم فبلغوا ما سمعوا دون تخاذل أو إبطاء.
**﴿ فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾.**

٣ - وعوا وفقهوا فكان بيانُهم بيان حفيظ أمين:
**﴿ قالوا يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيمٍ ﴾.**

٤ - عرفوا الحق فلزموه ودعوا إليه وبينوا نتائج الإيمان به والاستجابة له وحذروا من الفرار منه أو الإعراض عنه فجمعوا بين الترغيب والترهيب:
**﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذابٍ أليمٍ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجزٍ فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلالٍ مبينٍ ﴾.**

٥ ـ صدقوا في النصح وخاطبوا قومهم بالقول الذي لا يجحد ولا ينقض ولا يرد وقالوا لهم ﴿ **ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض** ﴾. كما قالوا عن أنفسهم:

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾

( الجن : ١٢ )

ومن ذا الذي يجادل أو يكابر في ذلك وهو يرى عجز المخلوق وقدرة الخالق. وحاجة المخلوق وغنى الخالق ؟. من الذي يماري في ذلك وهو يرى مصائر الخلق وليس فيهم من يفر من موت أو ينجو من قدر. وأنى له أن ينجو أو يفر. « ومن المقدور لا ينجو الحَذِر ».

﴿ **ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض** ﴾. كم من جبارٍ قصمه الله وكم من مفسدٍ دمَّر الله عليه وباغٍ خسف به وظالمٍ أخذه أخذَ عزيزٍ مقتدر. وما من أحد منهم بِمُعْجِزٍ:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

( فاطر: ٤٤ )

ومن فاتته نصرة الله فليس له من أحد بعد الله يجيره وينصره. . . ﴿ **وليس له من دون الله أولياء** ﴾. أي لا يجيرهم منه أحد. فالسبيل إلى الفوز والنجاة إجابة داعى الله:

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

( الجن: ٢٢، ٢٣ )

تلك هداية الحق ومن لا يجب داعى الحق وقع في الباطل وضل سواء السبيل. هكذا

رأينا مؤمنى الجن . وقد علموا الحق وآمنوا به وبلغوه في ثقة ورشد وعلى بصيرة وحكمة . وكانوا بما عملوا أهلاً لأن يُذْكَرُوا وأن يكونوا دعاة لغيرهم وعبرة لقومهم وحديثاً يُتْلى على الإنس والجن . ومثلا لكل طالب علم لا يفوته أدب الطلب ولا يقعد عن تبليغ ما علم . وما أحرى دعاة الحق أن يتدبروا ما قاله هؤلاء ـ وهم يستجيبون لداعى الله :

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

( الجن : ١٤ )

بل وهم يقولون : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ . فتكون لهم مع القرآن خلوة . ومن تلاوته زيادة إيمان وخشية ومن هدايته سبيل إخلاص لمقاصده وتبليغٍ لدعوته . ويكونون به راشدين موحدين مخلصين مطمئنين ثابتين على طريق مستقيم .

وذاك هو السبيل للنجاة من الخسران الذي يقع فيه كل إنسان إلا من آمن وعمل صالحاً واعتصم بالحق وإستعان بالصبر فأولئك هم الفائزون :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾

( سورة العصر )

هذه السورة جامعة شاملة وقد أحسن الشافعي رضي الله عنه حين قال : « لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم » . وفي رواية عنه « لو لم ينزل إلى الناس إلا هى لكفتهم » . وقد بين الإمام ابن القيم ذلك فقال : « ان المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله » . إحداها : معرفة الحق . الثانية : عمله به . الثالثة : تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا . . وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . « وعملوا الصالحات » وهم

الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى. « وتواصوا بالحق » ووصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة. « وتواصوا بالصبر » صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال. فإن الكمال. أن يكون الشخص كاملا في نفسه. مكملا لغيره. وكماله بإصلاح قُوّته العلمية والعملية. فصلاح القوة العلمية بالإيمان. وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات. وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها، هى من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير » انتهى.

وقد أشار الإمام الفخر الرازي إلى ذلك فقال: « التواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب. وفي إجتنابهم ما يحرم إذ الإقدام على المكروه والاحجام على المراد كلاهما شاق شديد.

ثم بين أن هذه السورة فيها وعيد شديد. وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس: إلا من كان آتيا بهذه الأشياء الأربعة، وهي الإيمان والعمل الصالح. والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور. وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه. فكذلك يلزمه في غيره أمور. منها الدعاء إلى الدين. والنصيحة. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن يحب له ما يحب لنفسه. ثم كرر التواصى ليتضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه. والأول الأمر بالمعروف. والثاني النهي عن المنكر. ومنه ﴿ **وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾. وقال عمر: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي.

ثم قال: وقد دلت الآية على أن الحق ثقيل وأن المحن تلازمه فلذلك قرن به التواصى بالصبر ».

« والتواصى بالحق والصبر داخل في الأعمال الصالحة وخصهما بالذكر « لأنهما حفاظ

كل خير ورأس كل أمر ». والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة. وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة. فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم، ويمكنوه من قلوبهم، ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه. بأن يدعو كلٌّ صاحبه إلى الإعتقاد بالحقائق الثابتة التي لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل. وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات. . التي لا قرار للنفوس عليها. ولا دليل يهدى إليها ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان. حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام. وهذا إطلاق للعقل من كل قيد مع إشتراط التدقيق في النظر. لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم. ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه، فهو من الخاسرين. كما ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل. والصبر قوة للنفس على إحتمال المشقة في العمل الطيب. وإحتمال المكروه من الحرمان من اللذة. إن كان في نيلها ما يخالف حقا أو ما لا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها. واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع. فشرط النجاة من الخسران أن تصبر. وأن توصى غيرك بالصبر. وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة، التى هي أم الفضائل بأسرها، ولا يمكنك حمله على ذلك، حتى تكون بنفسك متحليا بها. وإلا دخلت فيمن يقول، ولا يفعل كما يقول. فلم تكن ممن يعمل الصالحات[1].

قال الإمام: إنما قال ( وتواصوا ) ولم يقل ( وأوصوا ) ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق. ونزوع كل منهم إلى أن يوصى به قومه ومن يهمه أمر الحق. ليوصى صاحبه بطلبه يهمه أن يرى الحق فيقبله. فكأنه في هذه العبارة الجزلة، قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم »[2].

ولقد كان فهم الصحابة لهذه السورة وأفعالهم إذا التقوا ألا يفترقوا إلا إذا قرأوا هذه السورة. روى الطبراني بسنده عن عبيدالله بن حصين قال: « كان الرجلان من

---

(١) ، (٢) تفسير القاسمى.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر » .

يفعل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ـ ذلك تحقيقا للتواصى بالحق والمؤاخاة عليه والصبر على القيام به والثبات عليه . وهم يعلمون أن به وحده يكون الفوز بالرضوان والنجاة من الخسران . فالإيمان : إيمان بالحق . والعمل الصالح : عمل الحق . ولن يكون صالحا إلا إذا كان حقا . والتواصى بالحق جامع لكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ودعا إليه « وما جاء إلا بالحق » . والتواصى بالصبر: تواصٍ بالحق لأن القيام بالصبر مما يدعو إليه الحق وهو تحمل مشقة إقامة الحق . فمن أجل الحق كان وفي سبيله يكون التواصى به . « والتواصى بالحق ضرورة » فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة . هوى النفس . ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الإتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معا فتتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله . وهذا الدين ـ وهو الحق ـ لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة . متضامنة على هذا المثال .

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل . من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولابد من الصبر . لابد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفخ الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وإنطماس المعالم ، وبعد النهاية . والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف . ووحدة المتجه ، وتساند الجميع . وتزودهم بالحب والعزم والإصرار[1] .

(١) فى ظلال القرآن . .